العدد الثالث والعشرون
2006

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1374 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2006 مسيحي

أ. كبا عمران
فرع كلية الدعوة الإسلامية بالسنغال

تقديم

يعدّ الشعر أهمّ الفنون الأدبية، وأشهرها، عند الأفارقة المثقفين بالعربية أو المستعربين ـ إن صحّ التعبير؛ ولا غرو في ذلك إذا ما عرفنا مكانة الشعر في الأدب العربي، من عصره الجاهلي إلى عصره الحديث؛ وإذا عرفنا أن هذا الأدب العربي ـ وبخاصة في عصره الجاهلي ـ أهمّ ينبوع استقى منه الأفارقة مادتهم الشعرية موضوعاً وأسلوباً.

ولستُ في هذا البحث المتواضع أتناول تاريخ هذا الشعر العربي الأفريقي منذ نشأته؛ لأن الحديث في ذلك لطويل؛ والخوض في تحديد عصوره التاريخية لذو شجون؛ ومحاولة جمع إنتاج فحوله في إفريقيا السوداء لبعيدةُ المنال إن لم تكن مستحيلة.

ولكنني سأحاول أن أسلك سبيلاً يقربني إلى التعرّف على أبوابه المغلّقة؛

لأكون دليلاً لمن له استعداد أو بلغة لطرق تلك الأبواب علّ يعين المولى ـ نعم النصير ـ من سيفتحها ويستخرج كنوزها للمكتبة العربية التي تفتقر إلى مثل هذه الدراسات.

من المعلوم أن اللغة العربية رافقت الدعوة الإسلامية، التي لبّى الأفارقة نداءها منذ القرن الحادي عشر الميلادي في غربي إفريقيا. واقتضى اعتناقهم لهذا الدين الحنيف أن يتعلّموا كتابه السماوي الذي اتّخذ «العربية» لغة له، ولا سبيل إلى ذلك إلا الاحتكاك باللغة العربية؛ فحفظ كثيرون من هذا الكتاب العربي المقدس ما يجزيهم عن الشعائر التعبدية، دون أن يفقهوا معانيها الصحيحة. ثم شَمَّر بعض المتحمسين عن ساعد الجدِّ ففتحوا المجالس القرآنية أو الكتاتيب التعليمية؛ ليتوسّع في التعلّم من يطمح إلى ذلك، فبدأوا يدرسون اللغة العربية: قواعدها النحوية (في أمثال كتب الأجرومية، وقطر الندى، وألفية ابن مالك)، وآدابها الشعرية (في أمثال كتب المعلقات السبع الجاهلية، والمقصورة الدريدية لمحمد بن الحسن بن دريد الأزدي، وقصيدتي البردة والهمزية لمحمد بن سعيد البوصيري)[1]. وبفضل هذه الجهود، أنجبت تلك المدارس التقليدية علماء، رفعوا على عواتقهم لواءي الدين واللغة: ينشرون التعاليم الإسلامية بالوعظ والإرشاد، ويعلّمون تلامذتهم كتب اللغة والأدب؛ ولم يلبث أن غرس ذلك في نفوس بعض العلماء أو المتعلمين روح المحاكاة للشعراء العرب، كي يتيقّنوا أن مستواهم العلمي قد ارتقى إلى أسمى الدرجات.

هكذا بدأت هذه المحاكاة الشعرية، تراعيها التعاليم الدينية، ويثير دوافعها بعض العوامل الاجتماعية: كاسترضاءِ العلماء بالمدائح، ورثاء ذوي الفضائل؛ أو بعض العوامل الدينية: كالتقرب إلى الله تعالى بقصائد الثناء والمناجاة وبالمدائح النبوية؛ أو بعض العوامل التعليمية: كوضع منظومات شعرية ينهل منها المتعلمون مبادىء فروع العلوم العربية.

---

(1) راجع: كبا، عمران: الحياة الأدبية في غينيا. رسالة الماجستير بكلية الدعوة الإسلامية، ص160.

هكذا نشأ التكوين الأدبي، وازدهر النشاط الشعري، في إفريقيا قبل قدوم المستعمرين، الذين كانوا يتراسلون ـ إبان استقرارهم ـ بالعربية مع الملوك الأفارقة. حتى إن الملوك الوثنيين في إفريقيا كانوا يتّخذون كتبة من المسلمين المتعلمين، كي يحتفظوا بوصاياهم ومواثيقهم وليقوموا بدور المراسلة بينهم وبين الملوك الآخرين.

ولكن سرعان ما انقلب الوضع، بعد استقرار أقدام الاستعمار في الدول المستعمرَة، فغلبت اللغاتُ الأوروبية اللغة العربية، وحاربتها ومدارسها التقليدية، كي تبقى السيادة الرسمية لها في المستعمرات، وقد تمّ ذلك فعلاً قبل أن تستقلّ الدول الإفريقية قاطبة. وبعد هذه المأساة تقهقرت اللغة العربية وبقيت تحتفظ بصبغتها الدينية لتؤدّي رسالتها الروحية، أما القريحة الأدبية فيها فقد جفّت ينابيعها بعد أن كادت اللغة العربية تصير لغة ثقافية وأدبية في الحياة اليومية للشعوب الإفريقية، وبخاصة في غربي القارة.

ومحاولتي هذه ستكشف ملامح أحد الأغراض الشعرية ـ المدح ـ عند بعض شعراء غرب إفريقيا، وهو من الأغراض التي تتمثل فيها الدوافع النفسية والمؤثرات الاجتماعية، والتي كانت تنمي الإنتاج الأدبي في قلوب الشعراء. وقبله سنتعرف على أكثر الأغراض الشعرية تداولاً في أوساطهم، وعلى تلك التي هجروها ولم ينتجوا فيها من الشعر إلا نادرة نزرة. ثم سنقف بعد ذلك على ثلاث خصائص لبيان القيم الفنية التي حظي بها الإنتاج الإفريقي في شعر هذا الغرض، وذلك من خلال دراستنا لهذه العناصر الفنية في أعمالهم الأدبية:

- اللغة الشعرية.
- الموسيقى الشعرية.
- الصورة الشعرية.

والجدير بالذكر أن هناك كتابات رائدة من الرسائل العلمية في الموضوع نفسه، ولكن جلها يقتصر على أديب معين، أو على شعراء دولة معينة، أو على جزئيات محددة في الخصائص الفنية، نذكر منها: حركة اللغة العربية وآدابها في

نيجيريا للدكتور شيخو أحمد سعيد غلادنثى، والثقافة العربية في نيجيريا للدكتور علي أبو بكر، والحياة الأدبية في غينيا للباحث نفسه. وغيرها من الدراسات التي لا يتسع المقام لذكرها.

في أغراض الشعر العربي الإفريقي

في البدايةُ أودّ أن أقف وقفة على مصطلح «الأغراض الشعرية»، لإيضاح غموض، أو لتصحيح تناقض، يقع فيه بعض الباحثين. وذلك أن كثيرين يطلقون مصطلح «موضوعات الشعر» على «أغراض الشعر» ويتناولون في دراستها: الهجاء والمدح والرثاء... وغيرها، حتى أصبح كثير من دارسي الأدب لا يفرقون بين موضوعات الشعر وأغراضه؛ وإن كان النقاد الأوائل قد وقعوا في التناقض نفسه عندما أدرجوا «الخمر والمجون» في الأغراض الشعرية خلال العصور الأدبية المختلفة، امتداداً من الأعشى في العصر الأموي، بدلاً من أن يدرجوهما في الموضوعات الاجتماعية؛ كما نجد في الموضوعات السياسية: أحقية الخلافة في الشعر الأموي، وفي الموضوعات الدينية: كالموعظة في الشعر الإسلامي، وهكذا في الموضوعات الفكرية والعلمية... الخ.

ولإيضاح ما نزعمه، يقول الدكتور شوقي ضيف ما نصّه تحت عنوان «التجديد في الموضوعات القديمة: «ظل العباسيون ينظمون في الموضوعات القديمة من المديح وغير المديح مما كان ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون...»[2]. وعندما يقول مروان بن أبي حفصة في مدح الخليفة المهدي هذا البيت:

أَحْيىٰ أميرُ المؤمنينَ محمَّدٌ سُنَنَ النبي حرامَها وحلالَها[3]

فإنه يقول شعراً، غرضه المدح، وموضوعه في الدين؛ لأن الأغراض تتمثل في الدوافع والحوافز التي تحرك عاطفة قول الشعر، كما تتمثل في الغاية

(2) ضيف، شوقي: العصر العباسي الأول، ص159.
(3) الأصفهاني: الأغاني، 10/ 89.

التي يقصدها الشاعر في نتاجه الأدبي. وبهذا قد يقول الشاعر مدحاً في موضوع سياسي وديني كبيتي أبي العتاهية في الخليفة هارون الرشيد:

وراعٍ يراعي الله في حفظ أمّة يدافع عنها الشر غير رقود

تجافى عن الدنيا وأيقن أنّها مفارقة ليست بدار خلود[4]

هذا، وإن للشعر العربي الإفريقي مواقف مختلفة تجاه الأغراض الشعرية:

ـ منها ما أكثر استخدامها: المدح يتقدمها، تليها ـ ربما ـ المناجاة، فالرثاء، فالفخر، فالحكمة.

ـ ومنها ما قلّل إنتاجه: كالهجاء، والغزل.

ـ ومنها ما تشبه أن تكون مهجورة: كالحماسة، والوصف، والاعتذار، والإنذار، والشكوى.

إن محور هذه المقالة يتناول غرض المدح، لكثرة تداوله في إنتاج الشعراء الأفارقة، ولعناية الدارسين به في البحث والتعليم. والكشفُ عن خصائصه الفنية يمهّد السبيل لمعرفة خصائص الشعر العربي الإفريقي واتجاهاته الدينية والفكرية.

المدح وأنواعه في الشعر العربي الإفريقي

إن من يقف على أعمال فحول الشعر العربي الإفريقي يتبيّن له أن المدح في دواوينهم قد انحصر في عنصرين، أحدهما ما يعرف بالمديح النبوي، وثانيهما يمكن أن نطلق عليه «المدح الفني الشخصي». وسنبدأ الحديث عن الأول لكثرة الإنتاج فيه ولشهرته بين المولعين بالشعر العربي الإفريقي.

1 ـ المدح النبوي:

إن الرواد الشعراء الأفارقة، الذين تخرجوا في الكتاتيب والمجالس

(4) ديوان أبي العتاهية، ص124.

التقليدية، كانوا من أصحاب الطرق الصوفية القادرية والشاذلية والتجانية، وقد تربّوا في حجر زواياهم على إنشاد المدائح النبوية في البردة والهمزية، أضف إلى ذلك أن قصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير تعدّ أهمّ القصائد العربية التي أثرت في تكوينهم الشعري. وكانوا يعتقدون أن النظم في الشمائل النبوية مثاب عليها عند الله، بخلاف القرض في أغراض شعرية لا صلة لها بالدين والعقيدة.

وهذه وتلك من العوامل الأساسية في كثرة إنتاج الشعراء الأفارقة للمديح النبوي، فنجد عند:

- الشاعر الغيني الشيخ علي بوبديم (1847 ـ 1927) ثلاثة دواوين: أهدها باسم «درة الأبرار» في السيرة النبوية، وثانيها بعنوان «مقاليد السعادات في مديح سيد السادات»، وثالثها تحت عنوان «جلاد مدافع حزب القهار»، ولا يقل واحد منها عن 28 قصيدة.
- الشاعر النيجيري الشيخ محمد الناصر كبر القادري قصائده كثيرة ومشهورة بروعتها في هذا الغرض[5].
- وعند الشيخ أحمد بنات (1927) ـ مؤسّس الطريقة المريدية بالسنغال ـ نجد ما لا يكاد الباحث يحصيه من الدواوين النبوية: لمفاتح البشر في 2706 أبيات، وتيسير العسير في الصلاة على البشير، ومفاتح الجنان ومغالق النيران... وهذه قطرات من بحره الشعري.
- وعند الشيخ إبراهيم إيناس الكولخي السنغالي نعثر على دواوين كثيرة: تيسير الوصول، وإكسير السعادات، وسلوة الشجون، وأوثق العري، وشفاء الأسقام، ومناسك أهل الوداد، وكنز العارفين، ونور الحق، وسير القلب للمصطفى إلى حضرة الرب.
- وعند الشيخ ألفا محمود كابا (ت 1916) ديوان «بحر الأنوار...».
- وعند حفيد هذا الأخير، الشيخ كرامو طلبي (عمر كابا) المتوفي سنة 1962

(5) ينظر: غلادنثي، شيخو أحمد سعيد: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص150.

بغينيا، نجد قصائد كثيرة: سفينة الأخبار على بحر الأنوار، وطنبور البشارة والطراوة، وقدوة المولود الوالد في إحياء ليلة الميلاد.

- وعند السلطان محّمد بللو بنيجيريا: تخميس «بانت سعاد»، وإفادة الطالبين.
- وعند الشيخ أبي بكر عتيق قصائد نبوية: كمفتاح الأغلاق في مدح حبيب الخلاق.

إن أعمال هؤلاء تعدّ نماذج قليلة مما لا يمكن لباحثٍ ـ في الظروف الحالية ـ أن يحيط بها من إنتاجات هائلة، لدى فحول الشعر العربي الإفريقي، وجلّها ما زال حبيس الحقائب أو مبعثراً بين أيدي المتعلمين، إذ لم ينشر منها إلا قليل نزر. وقد اقتصرنا على شعراء ثلاث دول: السنغال وغينيا ونيجيريا.

وكانت هذه القصائد النبوية تنشد في المناسبات الدينية، وتتلىٰ في حلقات الذكر، وتدرس في المجالس العلمية، ويحفظها المتعلمون.

ومن يتأمل في هذه المدائح النبوية، وفي غيرها لدى الشعراء الآخرين، تبيّن له أنها تناولت المديح في النوعين: أحدهما يتناول تصوير صفات النبي الخُلقية وفضائله السلوكية ومكارم أخلاقه، ويمكن لنا أن نطلق على هذا النوع «المديح النبوي الوصفي». وثانيهما يتناول ذكر أنسابه الشريفة ورسم سيرته الملحمية وبيان غزواته الجهادية، ويمكن أن نطلق على هذا الصنف «المديح النبوي الملحمي».

أ ـ المديح النبوي الوصفي:

تثني قصائد هذا الصنف على سيد المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ، فتناول فضائله بالذكر، ومناقبه بالبيان، وما حظي به من كرامات ربانية بالتوضيح؛ بل لا تكاد تترك خصلة من شمائله ومكارمه إلا وقد نصت عليها في تصوير بياني بأسلوب رائع.

وغاية قصائد هذا المديح تتمثل في إبراز عظمة إنسانية محمد ﷺ الكاملة وسلوكياته النبوية التي تجعله أشرف مخلوق وأكمل إنسان في مروءته وأخلاقه

ومناقبه... ولا يجد الشعراء حدوداً لهذه الفضائل... ولهذا يصيح الشاعر الغيني كرامو طلبي صيحة متأثراً بفيضانات هذه الفضائل فيقول:

يا من خصائصه نما على النجوم في السما
والرمل، هل محصي لما قد فات حدّ العدد[6]

وكأنه كان يستجيب لنداء الشيخ علي بوبديم قبله عندما صوّر هذه اللانهائية لأحسابه:

خصوصه الرمل والحصباء قد كثرت وأعجزت كل عدّاد ونسّاخ[7]

وإن كان محمد ﷺ بشراً فقد خصّه الله تعالى بما يجعله عنصراً متميزاً بين بني آدم لا يدانيه أحد، وقد أكّد ذلك الشيخ عباس صل السنغالي في إحدى قصائده البائية:

بشر ولكن لا يرى كفؤاً له بصرٌ، وعبد للإله مقرب
بدر الوجود وجوده متدفق باب الإلٰه وباب لا يحجب[8]

ونرجع إلى كرامو طلبي لنرى كيف ينعت سيد المرسلين ﷺبرؤيته الصوفية في توحيد ذاته بصفاته، وبصوره البلاغية في وصف رائع:

واسمه كالذات وذاته كالنعت
ونعته كالبيت معمورة بمن هد
وطيبه كالعنبر ووجه كالبدر
وجوده كالبحر على دوام ممدّد[9]

وقد يتوغل بعض الشعراء في المعاني الصوفية التي لا يفقهها إلا من تأمل فيما وراء الكلمات؛ لأن النبي ﷺ يبدو سرّ الكون ونفحة من النور الإلهي بل

(6) طلبي، كرامو: قدوة المولود، ص21.
(7) بوبديم، علي: ديوان شعر الشيخ علي بوبديم، ص98.
(8) غاي، شيخ تجان: الشيخ عباس صل التجاني حياته وأعماله، ص149.
(9) طلبي، كرامو: قدوة المولود، ص25.

مبعث أنوار العالم، انظر إلى أبيات من القصيدة القافية للشيخ أبو بكر عتيق:

هو سيد الرسل الكرام وخيرهم هو أصل كل الخلق بالإطلاق
هو قبضة النور الإلهي الذي من قبل آدم قاسم الأرزاق
من نوره الأكوان طرّاً كونت أصل الأصول وخاتم السباق[10]

ونجد الشيخ علي بوبديم أحياناً ينقح مديحه من هذه المعميات الصوفية، ويصور صفات بشرية سامية يفهمها الجميع ليقتدوا بما فيها من مكارم الأخلاق، فيقول في قصيدة بائية:

برّ أمين مطيع صادق حسن سهل رؤوف رحيم محسن حابِ
باب السعادة ينبوع المكارم من قد صار في حضرة المولى كبوّاب
برق يسوق سحاباً من مواهبه يهمي بوبل من الخيرات صبّاب
بهاؤه وعطاياه وحكمته يكلّ إدراكها أبصار الالباب[11]

ولا يخفى على المتأمل في هذه الأبيات ما فيها من صور بيانية رائعة بأسلوب أخّاذ وجذّاب، وروعته في جمع هذه المناقب والأخلاق الفاضلة في عبارات موجزة بعيدة عن التكلف والتصنّع.

والجدير بالذكر أن التغنّي بهذه المناقب لم يقف عند حدّ سردها، فقد اتخذ البعض بيانها بل ترددها تقرّباً إلى العليّ العظيم، فأصبحت قصائدها تتلى كالأذكار في المناجاة والتوسل إلى الله تعالى. ويتضح ذلك في نماذج قصيدة بائية من ديوان «شفاء الأسقام في مدح خير الأنام» للشيخ إبراهيم انياس الكولخي السنغالي:

أنادي حبيب الله طه محمداً أبا القاسم الهادي المقفّىٰ مناجياً
لترحم خديماً ضارعاً عند بابك الـ ـمؤمل يا محمود فانظر لحاليا
عليك صلاة الله ثم سلامه صلاة بها نيلي العلي والمعاليا

(10) عمر، محمد الأمين: الشيخ أبو بكر عتيق وديوانه هدية الأحباب، ص169.
(11) بوبديم، علي: ديوان شعر الشيخ علي بوبديم، ص93.

عـلـيـك صـلاة الله ثـم سـلامـه صـلاة بـهـا ألـقـى لـديـك الأمـانـيـا
عـلـيـك صـلاة الله ثـم سـلامـه صـلاة بـهـا أهـدى فـأصـبـح هـاديـا
عـلـيـك صـلاة الله ثـم سـلامـه صـلاة بـهـا أبـقـى كـريـماً مـواسـيـا[12]

ومن المناجاة يصل الشاعر الصوفي إلى حالة من العشق المدحي، فيشغف قلبه بالنبي ﷺ ويبتلى بحب فان وشوق يغلي في القلب والأحشاء ويخمد:

ونـار شـوقـك فـي الأحـشـاء خـامـدة والقلب في الصحو والإكرام تذليل[13]

هكذا يخاطب الشيخ عباس صل حضرة حبيبه النبي ﷺ، وينصّ على أن من ذاق حبّه يفنى فيه إن كان صادقاً في العشق:

من ذاق يفن، ومن لم يفن ليس له فـي حـق مـحـبـوبـه إلا دعـاويـه[14]

وإذا ما عدنا إلى الشيخ إبراهيم إيناس[15] نجده في قصيدة لامية ـ من ديوانه أوثق العرى في مدح سيد الورى ـ ذا حرارة شوقية وغرامية، تتفجّر مشاعره العشقية من خلال عبارات بليغة وصور بيانية، لا يقف عليها قارىء إلا تأخذه أريحية عجيبة من بصمات محبة صادقة:

يـهـيّـج أفـكـاري لـمـدح الـمـزمّـل غـرامـي وشـوقـي لـلـجـمـال الـمـكـمّـل
دعـاني جـمـال الـمـصـطـفـى فـأجـبـتـه بـدمـعٍ كـوبـلٍ مـن فـؤاد مـقـتّـل
أراني أحـبّ الـعـرْب والـصـحـب جـمـلة وآلاً وأنـصـاراً لـحـبّ الـمـزمّـل
ولا سـيّـمـا الـشـيـخـيـن ثـم خـلـيـفـة يـكـنّـى أبـا عـمـر وصـنـو الـمـبـجّـل
كـذلـك مـن خُـبّـيـه حـبّـي لـطـيـبـةٍ وأمّ الـقـرى الـبـطـحـا عـلـى كـل مـنـزل
فـلـسـتُ أحـبّ الـدهـر شـيـئـاً سـواءه ولـسـتُ أعـادي غـيـر أعـداء مـوئـلـي

(12) إنياس، الشيخ إبراهيم: الدواوين الست، ص145.
(13) غاي، شيخ تجان: الشيخ عباس صل التجاني في حياته وأعماله، ص144.
(14) المصدر نفسه، ص149.
(15) إيناس، الشيخ إبراهيم: الدواوين الستّ، ص116 ـ 117.

ب ـ المديح النبوي الملحمي:

وإذا كان جلّ الشعراء، في الأدب العربي الإفريقي، قد مالوا إلى مدح النبي ﷺ بالصفات الجليلة والمناقب الشريفة؛ إلا أن الآخرين ـ غير كثير ـ قد عهدوا لأقلامهم رسم السيرة النبوية مُسهبين الحديث عن حياته قبل البعثة، من ولادة ونشأة وترعرع، وما يتعلق بهذه النشأة من تسلّط الضوء على الذين نشأ في حجورهم بربوع الأسرة الهاشمية.

وقد أفرد الشيخ علي بوبديم ديواناً كاملاً لهذه السيرة الملحمية، تناول فيه نسبه الشريف معدّداً أجداده من عبد المطلب إلى عدنان في قصيدة افتتحها بقوله:

آباء مولانا نبي التوبة ... هو ابن عبد الله نجل شيبه
وهو الذي يدعى بعبد المطلب ... وهو ابن عمرو هاشم له لقب
ابن المغيرة وذا عبد مناف ... ابن قصي بن كلاب لا نخاف[16]

إلى أن قال بعد ذلك:

وهو ابن عدنان الذي كان النبي ... إليه ينتهي لعد النسب
والخلف في ما فوق عدنان ورد ... فقيل إنه ابن أدبن أدد[17]

ومن بعد هذا البيت الأخير بدأ يسرد شجرة آبائه ـ المختلف فيها ـ إلى النبي إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام.

وبعد قصيدتين، إحداهما في نسب أمهاته والأخرى في حمله، يأتي ليتناول مولده في قصيدة مطلعها:

وكان مولد النبي في سرر ... ربيع الأول أو الثاني عشر
ليلة الاثنين بلا شقاق ... عام قدوم الفيل باتفاق

(16) بوبديم، الشيخ علي: ديوان شعر الشيخ علي بوبديم، ص16.
(17) المصدر نفسه، ص17.

فكان في ظهوره آيات بعظم قدره مبينات
منها خمود نار فارس التي قد أوقدوها منذ ألف سنة[18]

هكذا بدأ يعدّد البشارات التي رحبت بمولد سيد المرسلين: من انصداع الإيوان وتنكس الأوثان ومعاينة النجوم للحاضرين، مما يدلّ على رؤية الشاعر المحيطة بهذه السيرة الجليلة، وقد يقف بقارئه في بعض القصائد الطوال ليفصّل له تصوير الحوادث الكبرى في حياة المصطفى. ومن أطول قصائد هذا الديوان، الذي أسماه بدرّة الأبرار، ما خصّصها لبعثته النبوية والتي تمتد إلى 68 بيتاً، وقد جاءت في مطلعها هذه الأبيات:

وأرسل الله النبي أحمدا صلى وسلم عليه أبدا
في يوم الاثنين فقيل في رجب وقيل بل في رمضان وانتخب
وهو ابن أربعين عاماً وأحد وكان في غار حراء انفرد
فجاءه جبريل فيه فاجئا قال له: اقرأ، قال: لست قارئا[19]

انظر كيف يوجز القول في تصوير حياة النبي ﷺ قبيل البعثة، فينصّ على عمره وخلوته بنفسه بغار حراء وعلى الحوار الذي دار بين النبي ﷺ وجبريل، عليه السلام، وهو يبشّره باصطفائه لتبليغ الرسالة السماوية.

ومن هنا تبدأ قصة الرسالة المحمدية في مكة المكرمة، فيحكي لنا ما لاقاه هذا النبي ﷺ ومن آمن به من معاملات قاسية على أيدي ذويهم من أهل مكة، وبخاصة ما تتعلق بقصة تلك الصحيفة التي علقت في الكعبة لمقاطعة بني هاشم في البيع والتزواج والمعاملات الأخرى الاجتماعية خلال ثلاثة أعوام. يقول صاحبنا مصوّراً هذه الأحداث المأساوية:

لمّا رأت قريش ان عمّه قد ذبّهم عنه فلن يسلّمه
عادوه مع عترته الأكارم وهم بنو مطلّب وهاشم

(18) المصدر نفسه، ص23.
(19) المصدر السابق، ص23.

واتّفقوا على مقاطعتهم والصدّ عنهم ومجانبتهم
فلن يكلّموا ولا يجامعوا ولا يناكحوا ولا يبايعوا
وكتبوا صحيفة في ذا المرام وعلّقوا الكتاب بالبيت الحرام
ورجعوا إلى الذين أسلموا يعذّبونهم ليفتنوهم
عن دينهم فأمر النبيّ أن يهاجروا إلى النجاشي الحسن[20]

وهكذا من الهجرة الأولى إلى الثانية حتى نهاية العهد المكّي، الذي عقبه العهد المدني بهجرته المشهورة.

ولكن لا يخفى على القارىء أن الشاعر قد أطلق عنان أسلوبه للغة التاريخية دون عناية بالأساليب البيانية التي تصبغ هذه الصياغة بأريحية أدبية رائعة، تأخذ بقلب القارىء إلى متعة فنية بعيداً عن جفاف الأسلوب التاريخي. ولنؤجل الحديث عن القيم الفنية إلى الصفحات التالية.

وإذا ما وصل بنا إلى العهد المدني، تجد شيخنا الشاعر يعنى بالغزوات، على عادة المؤرخين الذين يركزون على الحملات الجهادية أكثر من سيرته الدعوية، فيفرد لأشهر غزواته ﷺ قصائد مستقلة: كغزوات بدر، وأحد، والخندق، وبني قريظة، وفتح مكة، وحنين، وتبوك.

الآن قف معي على مشاهدة هذه المبارزة التي وقعت بين فريق من المسلمين وفريق من كفرة قريش في غزوة بدر:

وبارزَ الوليدَ سيدي علي فشقّ رأسه بحدّ الصيقل
وشيبة مع عبيدة اختلف بضربتين الكل سيفه وقف
فكرّ حمزة وصنوه على شيبة أجهزاه ثم احتملا
أخاهما لصحبه واشتبكا حزب الهدى أعداءهم واعتركا
واستعر الهيجاء والرؤوس تطايرت وحمى الوطيس[21]

(20) المصدر السابق، ص25.
(21) المصدر السابق، ص24 ـ 25.

ثم يختم صاحبنا هذه السيرة الشريفة بقصيدة عنوانها بـ«باب في ذكر وفاته ﷺ» فيتحدث عن مرضه، وملازمته للفراش، وأمره بإمامة أبي بكر رضي الله عنه في الصلاة، ويصوّر محاورته لعزرائيل ـ عليه السلام ـ في استئذانه، وموته وكفنه بعد غسله، ثم الصلاة عليه ﷺ ودفنه كما توضحه هذه الأبيات:

ثم عليه للصلاة دخلوا بلا إمام بل فرادى فعلوا
يدخل جمع بعد آخرنينا وهم مع الأملاك يسمعونا
أصواتهم ولا يرونهم إلى أن فرغوا صلى عليه ذو العلا
وغاسلوه أدخلوه قبره وأضجعوا على فراش صدره
قطيفة حمراء كانت في الدنا غطاءه صلى عليه ربنا[22]

وقد اعتمدت في بيان السيرة الملحمية على هذا الديوان، لتكون أنموذجته أسلوب شعراء الأدب العربي الإفريقي، الذين يفردون ديواناً من إنتاجهم لهذا النوع من المديح النبوي. وإن كان غيرهم يزاوجون بين مدح الصلاة عليه وبين ذكر نسبه الشريف أو مناقبه، على عادة الشيخ أحمد بنبا في قصيدته الطويلة المسماة بمفتاح البشر فتأتي فيها هذه الأبيات المتفرقة:

صلّ وسلّمنّ يا إلٰهي على خليلك ابن عبد الله
يا من إليه بالكتاب انقلبْ صلّ على الماحي ابن عبد المطلبْ
يا خير من كتب كلّ راشم فيه قُد الصلاة لابن هاشم
يا خير جالب الرضى وغير نافْ صلّ على من جدّه عبد منافْ
وصل بالتسليم يا وليي على بشير جدّه قصيّ[23]

إلى أن يقف عند جدّه ﷺ العشرين عدنان، فيقول:

صل وسلّمنّ يا منّان على الذي ازدان به عدنان[24]

---

(22) المصدر السابق، ص72 ـ 73.

(23) بنبا، الشيخ أحمد: مفاتح البشر، ص3.

(24) المصدر نفسه، ص4.

2 ـ المديح الفني الشخصي:

إن تبادل المدائح الشعرية بين العلماء وشيوخهم ظاهرة اجتماعية منتشرة، وبخاصة في أوساط المتصوفين المسلمين، وبين العلماء والذين يتزاورون من بلاد إلى أخرى. بل كانت ظاهرة قرض الشعر مجالاً يتبارى فيه العلماء ليثبتوا لتلاميذهم وأصحابهم أنهم على مستوى لغوي رفيع من الدرجة العلمية. بل كان بعض التلاميذ يجرّبون ملكاتهم الشعرية في سنّ مبكرة، كي يلفتوا تقدير شيوخيهم إليهم؛ على ما حصل للحاج عبد الرحمن باه الشاعر الغيني 0 الذي مدح شيخه عمر الداري، وله من العمر ثلاث عشرة سنة، فقال هذه الأبيات:

أيا شيخي شريفي مع محبّي كشمس أنت أو بدر التمام
ألا فليهنئك العزّ المعلّى بلا إكماله وبلا تمام
فأنت السيد المحبوب عند البرايا كلّهم ثم الكرام[25]

فرّد شيخه مدحته ردّاً جميلاً بمثلها ناسجاً على منوال بحره في عشرة أبيات؛ منها ما يلي:

جزاك الله يا نجل الكرام ويا شبلا حكى ليث الأجام
لقد أثنيتني والحق إني يأهل لم أكن من ذا الكلام
وحسن الظن بالإخوان والّ لفاعله على خلق الكرام[26]

وما يدل هذا إلا على ظاهرة النضج الشعري، على المستوى الأسلوبي والفني، لدى متعلمي الكتاتيب، كما يدل كذلك على أن مناهجهم التعليمة ـ بخلافِ مناهج المدارس العربية الحديثة بالمنطقة ـ تسعى إلى ترسيخ المبادئ الأولية لهذا الفن الأدبي. ومن جهة ثالثة نجد أن القريحة الشعرية كانت تتفتح لدى بعض النجباء الذين يصلون إلى مستوى النبوغ في الشعر العربي الأفريقي.

لا تسل ـ أيها القارئ الكريم ـ بعد ذلك عن نشاط هذه الظاهرة، وازدهار

---

(25) باه، الحاج عبد الرحمن: بنات أفكاري، ص116.
(26) المصدر نفسه، ص117.

تبادلها بين الدارسين وشيوخهم، وبين العلماء وأقرانهم، وبين الشرفاء ومستضيفيهم من الأدباء.

ولكن، هل يمكن أن نقطع بحكم أن التكسب بالمدائح ظاهرة معدومة؟ نعم، لأنه كان يزري بالعلماء، فترفّعوا عنه، وتركوه لأهل اللؤم من الشعراء التقليديين باللغات المحلية[27].

ويمكن أن أدّعي أن للمدائح النبوية تأثيراً مباشراً في مدائح التلاميذ لشيوخهم، وأذكت نشاطها. وهو ادّعاء ينجلي دليله في أسلوب الشعراء، وفي مضامين أعمالهم التي لا تجد فرقاً جوهريّاً بينها وبين المدائح النبوية؛ إلاّ أن القارئ يستطيع أن يفرق بينهما بمعرفة أسماء الممدوحين.

ولكي تقتنع بما نذهب إليه؟ ما عليك إلا أن تتصفّح قليلاً مدائح بعض المتوصفين لشيوخهم. وانظر نظرة عابرة في ديوان الشيخ أبي بكر عتيق بنيجيريا ـ المسمّى هدية الأحباب ـ الذي أكثر فيه مدح الشيخ أحمد التجاني، وبخاصة في القصائد التي يتوسل فيها بشيخه، بل يتبرّك في مناجاته، كما يفعل غيره بالنبي ﷺ. وقد جاء في قصيدة له:

يا سيدي أحمد التجاني خذ بيدي أنت الملاذ فهذا الحال في ضيق
أنت العماد أيا غوثي ويا سندي وأنت كهفي إذا ما كنتُ في ضيق
. . . .
مالي سواك ومالي غير جاهك يا قطب البرية فانقذني من الضيق
أشكو إليك أموري يا طبيبيَ كن لها طبيباًفتنجيني من الضيق[28]

ومن قرأ الأبيات، دون البيت الأول، سيتبادر إلى ذهنه أن صاحبنا يناجي الرسول ﷺ ويتوسل به. وهكذا نجد أثر المديح النبوي بيّناً في هذا المديح

(27) ينظر: غلادنثي، شيخو أحمد سعيد: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص104.
(28) عمر، محمد الأمين: الشيخ أبو عتيق وديوانه هدية الأحباب، ص35 ـ 36.

الشخصي لما بينهما من مشاعر متماثلة وصفات متشابهة، إلا أن النبي ﷺ أولى بها وأحق من شيوخ الطرق الصوفية.

وانظر إلى مديح آخر من الحاج أحمد عبد القادر بنيجيريا يمدح به شيخه أبا إسحاق الحاج إبراهيم إيناس الكولخي السنغالي:

بـــــدا لـــــي أنـــــه بـــــاب إلـــى الـــرحـــمـــن يـــجـــتـــاب
فـــلـــيـــس يـــفـــيـــد تـــجـــواب بـــعـــيـــد لـــقـــاه إيـــنـــاس

. . . .

وشـــس الـــشـــيـــخ قـــد طـــلـــعـــت مـــن الـــغـــرب فـــمـــا غـــربـــت
لـــنـــحـــو الـــشـــرق قـــد عـــمـــت جـــمـــيـــع الأفـــق فـــي الـــنـــاس[29]

ويتبين من البيتين الأخيريْنِ أن أسلوبه يقترب من المدح الفني غير المدح النبوي، إلا أن مثل هذه التشبيهات البيانية قليلة في سائر أبياته التي تماثل البيتين الأولين، اللذين يأتيان من رؤية صوفية ـ لا يخفى علينا ـ يؤمن بها الشاعر ويعتقدها ويشعر بها في أعماقه: وهي تجلية مقامة شيخه له من المقامات النبوية. والذي يهمنا في هذه المقالة هو بيان الظواهر الفنية التي يتميز بها المدح كغرض فني من أغراض الشعر العربي الأفريقي.

وإذا ما وقفنا على المدائح التي دبّجها كرامو، لخليله الشيخ فانتا ماري شريف، تجد أبياتها قريبة من روح المدح الفني في أسلوبها ومضمونها، لما فيها من تشبيهات بيانية في صور شعرية رائعة، تتدفق منها متعة فنية منعشة:

كـــأنـــه ســـفـــن إن نـــاداه مـــنـــغـــرق أو كـــالـــبـــضـــاعـــة مـــهـــمـــا جـــاء ذو الـــعِـــيَـــل
كـــأنـــه عـــذب إن نـــاداه مـــنـــعـــطـــش أو أنـــه ســـلّـــم إن جـــاء ذو ســـفـــل
كـــأنـــه قـــمـــر إن ســـمّـــاه مـــن داج أو كـــالـــغـــرانـــق إن نـــاداه ذو ضـــلّ
أو عـــيـــش إن قـــالـــه نـــذرتْ ثـــاكـــلـــة مـــن الـــخـــســـارات الـــتـــالـــيـــات فـــي الـــنـــســـل

---

(29) عبد القادر، الحاج أحمد التجاني: الأشواق في مدح القطب أبي إسحاق. . . ، ص2، 3.

كـأنـه عـلـم إن جـاء مـنـخـفـض أو كـالـطـبـيـب متى سـمّـاه ذو شـلـل[30]

ألا يظهر من هذه الأبيات مدحة مغايرة عن السابقة، في أسلوبها الفني المتأثر بالشعر الجاهلي؟ أوليس مضمونها المعنوي يدل على دراية الشاعر بمذهب الفحول العرب في المدح الفني؟ وهل يشك القارئ في أن عاطفة صاحبنا صادقةُ المشاعر العميقة، وأنها من تجربة يعيشها صاحبها في حياته النفسية والاجتماعية، وبخاصة إذا عرفنا مدى الخلّة الصادقة التي تبادلها الشاعر وممدوحه، لكونهما متعاصرين متحابين في بيئة مدينة كنكان بغينيا الشرقية، لن يخفى علينا مصدر هذه الرونقة من قريحته الشعرية.

وربما كان المدح الفني ـ في الشعر العربي الإفريقي ـ أهم الأغراض صلة بالحياة اليومية، إذا ما حاول الشاعر أن يترجم في عمله الأدبي تجربته البيئية، وأراد أن يشخّص ما في ممدوحه من سلوك حيوي، بعيد عن وصفه بالأخلاق والفضائل التي يمكن أن يوصف كل مسلم بها.

وفي مثل هذا العمل الأدبي نستطيع أن نكتشف الظروف التاريخية، التي مرّ بها الشاعر وممدوحه، فلنقرأ معاً هذه الأبيات الآتية من قصيدة يمدح بها يحيى بن عبد القادر أمير الؤمنين ـ في مملكة سكتو بنيجيريا ـ الحسن بن معاذ:

جـديـر بـالـخـلافـة مـسـتـحـق بـهـا أهـل ومـن مـثـل الـهـمـام
لـقـد عـلـمـتْ بـذلـك أهـل هـوس جـمـيـعـاً قـبـل أخـذك بـالـزمـام
سـتـبـهـر أرضُـنـا وتـفـوق حـسـنـاً بـإذن الله «بـالـحـسـن» الـهـمـام
وتـحـيـى وقـتـه عـمـراً جـديـداً كـمـا تـحـيـا الـريـاض مـع الـغـمـام
ويـؤمـن أهـلـهـا وحـشـى افـتـراق ويـذكـر وقـتُـه وقـت الـتـئـام
وتـخـمـد فـي قـلـوب الـنـاس نـار الـعـداوة أجّـجـت زمـن الـلـئـام
وتـغـمـد ألـسـن تـبـغـي فـسـاداً فـتـخـرس لا تـطـيـق مـن الـكـلام

(30) طلبي، كرامو: قدوة المولود، ص45.

ويضرب فوق أيدي الظلم ضرب تشدّ به فيذهب كالجهام[31]

ويتضح مما قدّمناه من النماذج الشعرية، أن المديح الشخصي ذو صنفين في الشعر العربي الإفريقي:

أ ـ ما تأثر بالمدائح النبوية في الأسلوب والمضمون.

ب ـ ما تأثر بالشعر الجاهلي في أسلوبه البياني ومضمونه الوصفي بالصفات الاجتماعية البيئية.

الخصائص الفنية للمدح

من المعلوم أن الشعر العربي وفد إلى الأدب الأفريقي برفقة الدعوة الإسلامية والقرآن الكريم، وأن الدافع الأساسي ـ لدى الأفارقة ـ لقول الشعر دافع ديني، لا يشوبه دافع آخر.

إذ يعوّل الشاعر الأفريقي على الدين الحنيف وكتابه الحكيم في استقاء مادته الشعرية أسلوباً ومضموناً، فلا يشيد بفضيلة إلا ما أشاد بها الإسلام، ولا يتغنى بسلوك مخالف للسنة النبوية، ومن هنا تأثر الشعراء ـ بلا تكلّف ـ بالألفاظ الدينية والمعاني القرآنية.

لذا، فلا غرو إذا رأينا حصة كبيرة من مفردات هذه المدائح من الألفاظ الدينية، ومعانيها من الفضائل القرآنية والأخلاق النبوية، وهذا جليّ وأوفر في المدائح النبوية منه في المدح الفني للشخصيات؛ الأمر الذي جاءت منه ظاهرة «التكرار» كخاصية فنيّة لهذا الغرض كغيره من الأغراض الشعرية. انظر إلى هذا التكرار اللفظي من شعر الشيخ إسماعيل موسى ـ بمالي ـ في مناجاته النبوية:

فحسبي ثم حسبي يا حبيبي بأن أدعوك في كل المجال
فحسبي ثم حسبي يا شفيعي بأن أشكو إليك أمور حالي
فحسبي ثم حسبي يا عمادي بأن آتيك في طلب النوال

(31) غلادنثي، شيخو أحمد سعيد: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص156.

فحسبي ثم حسبي ثم حسبي لأن يـمّـمـت نـحـوك بـالـتـوالـي[32]

ويكثر هذا النمط من التكرار عند جل شعراء المنظومات النبوية إن لم يكن كلّهم. وربما يتذوقون من هذا التكرار إيقاعات فنية تعين على الإنشاد والتغني بالصوفي لأن التكرار من مقومات الموسيقى الشعرية. وربما أولع الشاعر بكلمة فيوردها تكراراً في جميع قوافي قصيدته، كما رأينا تكرار كلمة «الضيق» في قصيدة الشيخ أبي بكر عتيق السابق ذكرها في صفحة (14).

أليس الشغف بالمتعة الفنية لهذا التكرار ما جعل الشيخ إبراهيم الكولخي يكثر «عليه صلاة الله ثم سلامه» ـ فعولن مفاعلِن فعول مفاعلن ـ في صدور أبياته من قصائد غير قليلة في دواوينه الست النبوية، بل قد يتعلق قلبه بكلمة فيستخدمها في بدايات أسطر أبياته كما في قصيدته السينية من ديوانه «مناسك أهل الوداد».

سلام على المغلي لكل طروس سلام على المبدي بهل نقوسي
سلام على الغازي بكل خميس سلام على المفدي بكل نفوس
سلام على تاج لكل عروس سلام على الشافي فقط بمسيس[33]

وفي هذه الكلمة المكررة سر من أسرار المناجاة الربانية التي يتذوقه أهل التصوف.

والجدير بالذكر أن أكثر أساليبهم شبيهة بلغة النثر، بل هي أقرب إلى نثر موزون منه إلى شعر منظوم وبخاصة إذا جرّدت من الأساليب البيانية ـ التي تضفي بعضها صبغة شعرية ـ كما في المناجاة الربانية والنبوية ومدائح السير الملحمية.

(32) كَانْ، الشيخ إسماعيل موسىٰ: ديوان القصائد في مدح الخالق الجبار ورسوله الكريم، ص12، مخطوطة بالمركز الإفريقي لإحياء التراث الإسلامي بالجامعة الإسلامية في النيجر، تحت رقم 978.

(33) إيناس، الشيخ إبراهيم الكولخي: الدواوين الست، ص188.

وهذا ليس بعيب ـ إلى حدّ ما ـ بقدر ما هو خاصية فنية، لهذا النوع من الشعر العربي الأفريقي، تدلُّ على أن الشقِّ بين اللغة الشعرية واللغة الخطابية (بين العلماء) ضيق جداً.

وكان ينبغي لي في البداية أن أبادر إلى الحديث عن بنية القصيدة لدى الشعراء الأفارقة، وبخاصة في غرض المديح، الذي يعدّ أهم غرض شعري في الأدب العربي، والذي كان من خصائصه الفنية أن تفتتح قصائده بمقدمة غزلية تتمثل في الوقوف على الأطلال والبكاء على آثار الأحبة الراحلين، فما موقف الشعر العربي الأفريقي تجاه هذه المقدمة؟

لا تتطلب الإجابة عن هذا السؤال عناء يذكر، لأن الشعراء أنفسهم أفصحوا عن الإجابة الشافية في قصائدهم التي هجرتها وحاربتها وثارت عليها ثورة عنيفة. فانظر في ذلك إلى الشاعر الغيني الحاج عبد الرحمن باه وهو يدعو أقرانه إلى هجران هذه الخاصية الفنية وأن ينحوا منحى البوصيري:

خَلِّ عن هندٍ وعن دعدٍ وميْ والبكا في طلل أو ذكر مَيّ

وانح نهج البوصيري في مدح من هو من أولاد كعب ولؤيْ[34]

ولم يكن هذا بدعة منه، إذ قال قبله والده في مطلع قصيدة خائية من ديوانه «مقاليد السعادات»:

خلِّ ادكارَ الطلول العافيات إلى مدح النبي تذق أذواق الاشياخ[35]

كما رفع كذلك الشيخ إبراهيم الكولخي صارم الثورة على من يطالبه بهذه المقدمة، فيقول في مطلع قصيدته اللامية في ديوانه الأول «تيسير الوصول»:

دعانيَ من سلمى وليلى وقلّلا تذكّر ربّات الغرائر مسجلا[36]

---

(34) باه، الحاج عبد الرحمن: بنات أفكاري، ص31.

(35) بوبديم، الشيخ علي: ديوان شعر الشيخ علي بوبديم، ص98.

(36) إيناس، الحاج إبراهيم الكولخي: الدواوين الست، ص7.

وفي مطلع ميميّته من ديوانه الثاني «إكسير السعادات»:

دعانيَ من تذكار سلمى وتندم فإن جمال الهاشمي متردَّم[37]

ومن هذا المضمار ندرك مدى الدافع الديني في قول الشعر لدى هؤلاء الشعراء، الذين كانوا على وعي بالخصائص الفنية لهذا الشعر الجاهلي وللشعر الإسلامي، وآثروا الثاني على الأول في الأسلوب والمعاني، إلا في القليل النادر نجد تأثرهم بالألفاظ الغريبة الجاهلية وبتقليد تشبيهات بيانية، وحتى بإيراد هذه المقدمة الغزلية، مع صبغتها بصبغة دينية، على أيدي من حاربوها، كالحاج عبد الرحمن باه الذي يتغزل بسلمى في قصيدة يمدح بها حبيبه الحاج الرساسي، فجاءت في مطلعها هذه الأبيات:

أيا سلمى إلى م تقاطعيني وأيم الله حبّك قد براني
وطالت بي ليالي واعتراني هموم هيّجت لي ما أعاني
دعي هذا التدلل تعف عني وإن أزمعت صرمي وامتهاني
فهل لي مطمع في الوصل يوماً فيصفو الجو في نيل الأماني[38]

وإذا كانت ثمة مقدمة فنية للقصيدة، في الشعر العربي الأفريقي، فهي تتمثل في دعوة الممدوح بنداء إنشائي، أو الترنّم بحبّه والاشتياق إليه، أو بالثناءِ على الله والصلاة على نبيه الكريم ﷺ. . الخ، هذا على غير التزام الشعراء بنمط معنين، وعلى تنوع شاعر ما في قصائده بين هذه المقدمات وبين إطلاق بعض قصائده من غير ميزة فنية تلاحظ في مقدماتها.

وقوفاً على النماذج الشعرية، السابق سردها، يتبيّن لنا أن العشراء كانوا يتخيّرون ألفاظهم الشعرية ويوجّهون خيالهم الفني لرسم صور شعرية قديمة، وذلك في بعض المدائح الشخصية بخلاف المدائح النبوية التي تتميز بالأسلوب الخطابي الإنشائي، وبخاصة في مدائح المناجاة والتوسل.

---

(37) المصدر نفسه، ص61.

(38) باه، الحاج عبد الرحمن: بنات أفكاري، ص37.

ولكننا، في المدائح الشخصية، نعثر على بعض الصور الشعرية القديمة، كما يصوّر الحاج عبد القادر النيجيري أولاد الشيخ إبراهيم إيناس في ديوانه «الأشواق»:

لـــــــه الأولاد أبـــــــــراراً بـــدوا فـــي الـــجـــوّ أقـــمـــارا
وبـــدرهـــمُ بـــدا جـــهـــراً ســـمـــيّ الـــجـــدّ إيـــنـــاسِ[39]

انظر إلى هذه الصورة الفنية التي ترسم لنا لوحة شعرية ينتشر عليها أولاد الشيخ إبراهيم الخمسة والسبعون، لامعين بأنوار العلم والإيمان في فضاء مظلمة بالجهل والغفلة عن الله، يتوسطهم بدر كامل في طفاوة نورية، استعير لخليفة الممدوح وهو عبد الله بن إبراهيم إيناس. وراجع صفحة 15 من هذا البحث لترى ما رسمه الشيخ كرامو طلبي من صور بيانية رائعة في مدح خليله الوليّ الشيخ فانتامادي شريف.

وحريّ بالقارئ أن يعتقد بأن الشعراء الأفارقة مقلدون للشعراء العرب في صورهم الشعرية التي لا تجربة لهم فيها من بيئتهم الاجتماعية، ولا يشك في مصداقية هذه المؤاخذة كل من يقف قليلاً على بعض أعمالهم الشعرية.

وأما عن الموسيقى الشعرية فهي ظاهرة معروفة في المدائح النبوية التي تنبني على أكثر البحور الشعرية سهولة، ألا وهو الرجز، فجل شعراء الدواوين النبوية استخدموا الرجز التام والمجزوء، والرجز المجزوء المسمّط الرباعي كصاحب «بحر الأنوار» الشيخ ألفاء محمود كابا ـ الذي اختتم بما يلي:

صـلّـى عـلـيـك ذو الـعـلـى يـا مـن سـمـى إلـى الـعـلـى
والآل والـــصـــحـــب إلـــى يـــوم يـــفـــوز الـــبـــرّ[40]

وعلى هذه القافية الرائية ـ في الشطر الرابع ـ تنبني غنائية أبيات الديوان، وتتعانق كل أشطر ثلاثة أوّل على حرف رويّ واحد. ومن المعروف عند

(39) عبد القادر، الحاج أحمد التجاني: الأشواق في مدح الشيخ إبراهيم إيناس، ص7.
(40) كابا، الشيخ ألفا محمود: بحر الأنوار، ص18.

المتصوفين أنهم يتغنّون في تلاوة وتكرار مثل هذه الدواوين النبوية التي تترك في نفوسهم مشاعر جيّاشة من آثار هذه الموسيقى الفنية، وبخاصة في القصائد القصيرة على بحر الرجز المجزوء كأكثر أعمال الشيخ أحمد بمبا السنغالي

ثم يلي الرجز البحر الطويل الذي يكاد يأتي فيه جميع المدائح الشخصية، وحتى بعض المدائح النبوية مثل ما نجد في دواوين الشيخ إبراهيم إيناس، ولا غرو في ذلك إذا ما عرفنا أنَّ شعراءنا قد عوَّلوا على المعلقات الجاهلية، التي جاء أكثرها في هذا البحر في استقاء مصادرهم الشعرية وملكاتهم الفنية.

وبجانب هذه القصائد ذات الموسيقى الفنية تأتي ألوان من ألحان أصواتهم عندما يقوم أحدهم في محفل كبير بتقديم مديحه لأحد الشيوخ، فانه يمتع سامعيه بنغمات رنّانة وتفنّن صوتي، يمدّ المدود وينغّم التنوينات ويقف على الحروف الروية بعبقرية غنائية لاتتأتى لغير الفحول الشعراء، وهذه ظاهرة منتشرة في نيجيريا والسنغال.. لذا كانوا يتخيرون في الحروف الروية الأحرف السهلة مثل الراء واللام والميم والنون...، ولكن بعض أصحاب الدواوين فرضوا على أنفسهم قرض القصائد على جميع حروف المعجم، فجاءت تلك القصائد الضادية والظائية والغينية.. بعيدة عن المتعة الموسيقية،وان جلها قصائد قصيرة لا تقدر على تطويل النفس الموسيقية عند السامعين لخشونة أحرفها الروية.

وإن كان شعراؤنا ركّزوا على الرجز والطويل فلا يعني ذلك أنهم قصروا عليهما أعمالهم، بل إنهم قرضوا مدائحهم في جميع البحور الشعرية الخليلية، مفضّلين البحور الطوال كالكامل والبسيط والرمل والمديد والوافر. وفي هذا الأخير وضع الشيخ عباس هل قصيدة فائية تحية لقائد الثورة الليبية الأخ معمر القذافي، ونستعرض منها أبياتاً لتكون ختاماً مسكاً لهذه المقالة:

جزى الله المهيمن خير واف من الحسنى معمّره القذافي

رئيس المجلس الأعلى إماماً لخير الشعب وفّق لائتلاف

جـزاه مـبـلّـغـاً كـل الأمـانـي بـنـصـر وعـون خـالـقـه الـمـعـافـي
فـيـبـقـى حـجّـة لـلـه فـيـنـا بـقـاء الـدهـر قـائـمـة الأثـافـي
ويـبـقـى طـارداً شـرقـاً وغـربـاً غـراب الـكـفـر قـوتـل مـن غـداف
قـد امـتـلأ الـقـلـوب بـه سـروراً وأشـواقـاً تـدبّ عـلـى الـشـغـاف
فـلا زال الـمـؤمـل والـمـرجـى لذي الحاج المضاف إلى الضعاف
يـطـوف بـه الـطـوائـف كـل وقـت طـواف الـبـيـت مـن راج وعـاف
فـيـرجـع عـنـهـم مـغـمـور نـيـل جـزيـل زائـد حـدّ الـكـفـاف
ومـن يـنـصـر لـحـق الـحـقِّ يـنـصـر ألـيـس الله نـاصـره بـكـاف
وإن يـك بـالـمـضـاف لـه فـخـار يـكـن فـي لـيـبـيـا فـخـر الـمـضـاف
فـشـعـب قـاده الإسـلام نـالـوا عـلـى كُـلِّ الـجـمـاهـر بـالـهـتـاف
قـد احـيـى بـالـمـدارس دارسـات مـن اثـار الـهـدى مـن كـل عـاف
إلـى حـضـرات مـجـدك كـل وقـت أبـا الـخـيـرات نـاشـرهـا الـمـصـافـي
سـلام لا يـوازن مـن سـلام مـنَ أهـل الـديـن قـاطـبـة يـوافـي[41]

معركة بين العلم والمال في العالم الإسلامي

إِذِ الْـمَـالُ أَهْـدَى لِـلْـعُـلُـومِ صَـدَاقَـةً وَثَـالِـثُـهُـمْ مُـلْـكٌ بِـحُـسْـنِ كَـمَـالِـهِ
وَرَابِـعُـهُـمْ دِيـنٌ طَـبِـيـبُ قُـلُـوبِـهِـمْ فَـعَـالَـمُـنَـا أَحْـيَـا زَمَـانَ فِـضَـالِـهِ
وَكَـانَـتْ مَـرَاسِـيـمُ الـبِـلاَدِ لِـمُـلْـكِـنَـا وَلِـلْـمَـالِ رَغْـدُ الْـعَـيْـشِ رَغْـمَ هُـزَالِـهِ
وَلِلْعِلْمِ طِيبُ الْعَقْلِ مِنْ سِرِّ مِسْكِهِ وَ لِـلـدِّيـنِ صُـلْـحٌ مِـنْ دَوَاءِ نِـمَـالِـهِ
وَمَـا أَنْ قَـضَـى دِيـنٌ قَـرَارَ حِـمَـامِـهِ فَـقَـامَ صِـرَاعٌ! هَـلْ تَـرَى مِـنْ مِـثَـالِـهِ؟!
إِلَى الْـمَـالِ نَـمَّ الْـمُـلْـكُ بِـالْـعِـلْـمِ كَـذْبَـهُ فَـصَـدَّقَـهُ ظُـلْـمـاً بِـنَـبْـشِ قِـتَـالِـهِ!
تَـحَـيَّـرْتُ مِـنْ مَـالٍ يُـصَـارِعُ عِـلْـمَـنَـا بِـقَـوْسِ سِـيَـاسَـاتٍ لِـغَـصْـبِ جِـمَـالِـهِ

(41) غاي، شيخ تجان: الشيخ عباس صل التاني حياته وأعماله، ص226 ـ 227.

فَدَامَ صِرَاعٌ بِضْعَةً مِنْ عُصُورِنَا ... وَلِلْمَالِ نَجْدَاتٌ لِنُضْجِ سِبَالِهِ

فَحَلَّتْ هَزِيمَاتٌ بِعِلْمٍ بِلاَدِنَا ... وَقَدْ كُلِّلَ مَالٌ بِتَاجٍ وَبَالِهِ

فَبَارَكَهُ مُلْكٌ عَلَى نَهْشِ ضَيْمِهِ ... لِعَقْدِ زَوَاجٍ مِنْ بَنَاتِ ضُلاَلِهِ

فَلاَحَظْتُ مِنْ شَعْبِي قَدَاسَةَ عَرْشِهِ ... وَبَعْضٌ يُمَاشِيهِ خُطًى لِنِعَالِهِ

فَكَمْ مِنْ ذَوِي عِلْمٍ عَلَى بَابِ مُلْكِهِمْ ... يَمُدُّون أَبْوَاعاً لِكَسْبِ جَمَالِهِ

فَيَبْدُو لَهُمْ تَجْمِيلُهُ فِي مَقَالِهِمْ: ... «كَلاَمُهُ ذُو وَحْيٍ!»، لِذَهْبِ عِقَالِهِ

«إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ» ... فَكُلُّ كَرَامَاتٍ قَرِينُ خِصَالِهِ

فَأَعْظِمْ بِظُلْمِ الْمَالِ أَهْلَ عُلُومِنَا! ... سَيَقْضِي عَلَيْهِ مُنْكِرٌ بِسُؤَالِهِ

إِذَا المَرْءُ لَمْ «يَحْزَنْ مِنَ الْفَقْرِ أَهْلُهُ ... فَرَأْيُهُ ذُو تَاجٍ عَلَى رَأْسِ آلِهِ

كَأَنَّهُ ذُو عِزٍّ لِقِيمَةِ مَالِهِ ... وَعِزُّ ذَوِي مَالٍ سَرِيعُ زَوَالِهِ

أَلَمْ تَرَ كَمْ مِنْ عَالِمٍ فِي عِيَالِهِ ... يُعَدُّ مِنَ الْبَلْوَى قُصُورُ مَنَالِهِ

كَأَنَّ نُضُوبَ الْبِئْرِ مِنْهُ وَضَعْفِهِ ... وَلاَ أَحَدَ يُرْضِيهِ جُمُودُ خَيَالِهِ

كَأَنَّ لَهُ رِزْقاً أُصِيبَ بِنَحْسِهِ ... وَلَيْسَ لِكَهْنُوتٍ مَرَدُّ حَلاَلَهُ

وَكُلٌّ عَلَى مَالٍ شَدِيدُ لِحَاقِهِ ... كَنَحْلٍ عَلَى زَهْرٍ شَدِيدُ رِحَالِهِ

وَأَرْزَاقُنَا عِنْدَ الْإِلٰهِ بِقَدْرِنَا ... يُوَزِّعُهَا قَدْراً بِسَيْرِ هِلاَلِهِ

أَيَسْبِقُ فِي جَرْيِ الرَّبِيعُ شِتَاءَهُ؟! ... أَيَسْبِقُ ذُو خَيْلٍ مَسِيرَ ظِلاَلِهِ؟!

وَمَا حَجَرٌ يُنْمِي زُرُوعَ فُصُولِهِ ... وَلَوْ فَجَرَ الْيَنْبُوعُ فَوْقَ مُحَالِهِ

وَلاَ يَأْسَ مِنْ أَحَدٍ لَجَدْبِ حُقُولِهِ ... وَلاَ يَدَ مِنْ أَحْدٍ لِغَسْلِ طِحَالِهِ!

وَلَيْسَ لِطَاوُوسٍ خِيَارُ رِيَاشِهِ ... أَيَهْزَأُ مِنْ بُومٍ بِمَدِّ طَوَالِهِ؟

أُقَدِّرُ ذَا جُهْدٍ لِجَذْبِ نَصِيبِهِ ... حَلاَلاً مِنَ الْأَرْزَاقِ حِينَ مَجَالِهِ

وَمَا نَالَ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ فِي فَوَاتِهِ ... فَرِزْقُهُ فِي بَحْثٍ دِيَارَ مَآلِهِ

وَمَا فَاتَ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ فِي لِقَائِهِ ... فَرِزْقُهُ فِي مَرْمَى عِنَانِ دَلاَلِهِ

أَلَمْ تَرَ كَمْ مِنْ صَائِدٍ فِي سِبَاقِهِ ... يَكُبُّ مِرَاراً حِينَ صَيْدِ غَزَالِهِ

وَلاَ صَائِداً فِينَا يُصَفِّي شِبَاكَهُ ... لِيَرْضىٰ بِمَا يُؤْتَى لَهُ مِنْ حِبَالِهِ

فَسَيْراً بِبَابْوَابِ وَرِزْقُكَ طَائِفٌ ... بِرَبِّكَ تَلْقَاهُ لِفَضْلِ جَلاَلِهِ

وَمَنْ صَادَ فِي نَوْمٍ طُيُورَ غِذَائِهِ ... فَبَاتَ سَجِيناً فِي كُهُوفِ ضَلاَلِهِ

أَنَرْضَى بِذِي كَدٍّ يَرُدُّ نَهَارَهُ؟! ... يَعُضُّ أَنَامِلاً لَفَوْتِ نَوَالِهِ!

وَكَمْ خِفَّةٍ لِلْعِلْمِ هَزَّتْ عِظَامَهُ؟! ... يُزَعْزِعُهُ مَالٌ مَضَى فِي حِيَالِهِ

فَلاَ خِفَّةً لِلْعِلْمِ بَلْ فِي رِجَالِهِ ... فَيَنْقُصُهُمْ شَهْمٌ فُوَيقَ تِلاَلِهِ

فَيَفْقَدُ مِنْ عِزّ أَمَامَ مُيُولِهِ ... إِلَى الْمَالِ فِي ذَمٍّ لِمَا فِي سِلاَلِهِ

وَجُعْبَتُهُ مَلأَىٰ بِشَتَّى الآلىءَ ... فَيَنْثُرُهَا أَعْلَى قُبُورِ بِغَالِهِ

فَأَعْنِي بِذِي عِلْمٍ يَرَى فَضْلَ حَالِهِ ... عَلَى جَاهِ أَمْوَالٍ بِجَمْعِ شِمَالِهِ

إِذَا كَانَ لاَ بُدّاً مِنَ الْحَالِ هٰذِهِ ... فَكُلْ بِيَمِينٍ تَحْتَ حَمْلِ ثِقَالِهِ!

فَبِالْمَالِ نَحْيَا فِي حُلُولِ ظُرُوفِنا! ... أَيَزْعُمُ لِلأَمْوَالِ بَرْءَ عُضَالِهِ؟

لِفَلْسَفَةِ الأَمْوَالِ نَرْمِي ثِيَابَنَا؟! ... لِنَسْعَىٰ عُرَاةً فِي صُعُودِ جِبَالِهِ!

وَيَا عَجَباً لِلْمَالِ يُعْطَى وَرِيثُهُ ... ثَنَاءَ فِعَالَيْنَا لِنَيْلِ رِيَالِهِ!

يُبَذِّرُ فِي يَوْمٍ عَلَى نَهْدِ بَغْيِهِ ... وَيَسْرِي عَلَى ذَنْبٍ بِقَذْفِ زُلاَلِهِ

وَتُصْبِحُ دَارَهُ مَعَابِدَ جَيْشِهِ ... تُضَحَّىٰ دِمَاءٌ مِنْ فِرَاخِ فِصَالِهِ

تُقَامُ طُقُوسٌ فِي بِنَاءِ تَمَائِمَ ... لِأَسْرِ ذَوِي عِلْمٍ بِسَوْطِ دَجَالِهِ

وَكَمْ عَالِمٍ يُسْقَى عَلَى صِدْقِ نَقْدِهِ ... دُمُوعَ سُجُونٍ تَحْتَ سُوءِ نَكَالِهِ!

عَلَى طَالِبٍ صَبْراً قَضَى يُبْسَ مَهْدِهِ ... يَعِيشُ عَلَى مَهْوَى وَقُودِ كَلاَلِهِ

فَيَطْوِي سِنِيناً فِي قِيَاسِ رَجَائِهِ ... لِنَوْمِ مَسَاعِيهِ عَلَى حُسْنِ حَالِهِ

فَيُهْدَمُ مَأْوَاهُ عَلَى سَلْبِ حَقِّهِ! ... وَيُرْمَىٰ عَلَى بَلْوَى خَسَارِ نِضَالِهِ!

وَيَا أَسَفاً لِلْعِلْمِ يُعْطَى زِمَامُهُ ... لِسَاعٍ إِلَى الهَيْجَا بِغَيْرِ نِصَالِهِ

يَقُولُ مُدَارَاةً: أَلَسْتُ شُجَاعَكُمْ ... وَقَلْبُهُ ذُو جُبْنٍ لِرَفْعِ نِبَالِهِ!

فَيَأْتِي مِنَ الهَيْجَا تَسِيلُ دِمَاؤُهُ ... فَتُدْعَى عَلَى عِلْمٍ عُيُوبُ صِقَالِهِ!

إِذَا مَا عِزٌّ يُكْسَى بِجِلْدِ أُسَامَةٍ فَتَأْكُلُهُ الضَّبْعَاتُ عِنْدَ سُعَالِهِ!
وَكَمْ عَالِمٍ يَصْفُو بِكَفٍّ لِسَانِهِ وَكَمْ جَاهِلٍ يَكْبُو بِطُولِ جِدَالِهِ!
فَصَاحَتُهُ لَيْسَتْ مَقَاسَ قَرِيحَةٍ وَلَكِنَّهَا عِقْدٌ لِطَوْقِ مَقَالِهِ
فَهَذَا يَظُنُّ الْعِلْمَ طَلْقَ لِجَامِهِ يَرَى ذَاكَ أَنَّ الْعِلْمَ عِصْمَةُ بَالِهِ
إِذِ الْعِلْمُ ذُو جُرْحٍ، عَلَيْنَا شِفَاءَهُ فَوَاجِبُنَا لِلْعِلْمِ سَدُّ خِلاَلِهِ
تَعَالُوْا إِلَى صُلْحٍ لرفع عَدَاوَةٍ لِتَجْدِيدِ وَعْيِ الْمَالِ عِنْدَ عِيَالِهِ
وَلاَ بُدَّ مِنْ صُلْحٍ كَصُلْحٍ رَسُولِنَا وَلاَ بُدَّ مِنْ هَدْيٍ كَهَدْيِ فَعَالِهِ

كبا عمران

المراجع

1 ـ أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية. بيروت (لبنان)، دار صادر، لا. ط، لا، ت.

2 ـ الأصفهاني، أبو الفرج: **الأغاني**. القاهرة، دار الكتب المصرية، لا. ط، لا. ت.

3 ـ إنياس، الشيخ إبراهيم الكولخي: **الدواوين الستّ**. كنو (نيجيريا)، مطبعة حافظ أدهو، لا. ط، لا. ت.

4 ـ باه، الحاج عبد الرحمن: **بنات أفكاري**. **لأبي (غينيا)**، لا. مط، الطبعة الأولى، 1403هـ.

5 ـ بنبا، الشيخ أحمد: **مفاتح البشر**. **دكار (السنغال)**، مطبعة شارع كلمسيو، لا. ط، لا. ت.

6 ـ بوبديم، الشيخ علي: **ديوان شعر الشيخ علي بوبديم**. القاهرة، المطبعة العالمية، لا. ط، 1986م.

7 ـ ضيف، شوقي: **تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الأول**. . القاهرة، دار المعارف. الطبعة السادسة، 1986م.

8 ـ طلبي، كرامو: **قدوة المولود في إحياء ليلة الميلاد لسيدنا أحمد المحمود**. الجزائر، المطبعة الثعالبية، لا. ط، 1939م/ 1358هـ.

9 ـ عبد القادر، الحاج أحمد: **الأشواق في مدح القطب أبي إسحاق الشيخ إبراهيم إيناس الكولخي**. نيجيريا، لا. مط، لا. ط، لا. ت.

10 ـ عمر، محمد الأمين: **الشيخ أبو بكر عتيق وديوانه هدية الأحباب والخلان**. نيجيريا، لا. مط، لا. ط. لا. ت.

11 ـ غاي، شيخ تيجان: **الشيخ عباس صل التجاني حياته وأعماله**. لوغا (السنغال)، مطبعة N/S، الطبعة الأولى، سنة 2001م.

12 ـ غلادنثي، شيخو أحمد سعيد: **حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا**. القاهرة، لا. مط، لا. ط، لا. ت.

13 ـ كابا، الشيخ ألفا محمود: **بحر الأنوار**. تونس، مطبعة المنار نهج التريبونال، الطبعة الثانية، 1392هـ.

14 ـ كان، الشيخ إسماعيل موسى: **ديوان القصائد في مدح الخالق الجبار ورسوله الكريم**. مخطوطة بالمركز الإفريقي لإحياء التراث الإسلامي في الجامعة الإسلامية بالنيجر، تحت رقم التصنيف 978.

15 ـ كبا، عمران: **الحياة الأدبية في غينيا**. رسالة الماجستير بكلية الدعوة الإسلامية. طرابلس (ليبيا)، سنة 1996م.